13 me Année No. 637

Lundi - 17 - 9 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٣٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١١ شوال سنة ١٣٦٤ — ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

درسان من دروس الحياة

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى

من أول ما تعلمته فى حياتى أن الدنيا لى ولغيرى ، وأنى لم أُعطها وحدى ، ولا أُعطيها سواى ملكاً خالصاً له ، ونحن جميعاً شركاء متكافئون فى الحقوق ، وعلينا من أجل ذلك واجبات متماثلة . وما دمنا شركاء إلى حين ، وما دام أن المقام فى الدنيا على كل حال قليل ، فإن من الحماقة أن ننغّص على أنفسنا هذه الحياة القصيرة بالمنّ ، أو أن نؤثر التى هى أخشن على التى هى أحسن فى سيرتنا ، وقد كنت أحمق الحمق فى صدر حياتى ، وما زالت بى بقية غير هينة من الحماقة ، فما انفكت الدنيا تنفضنى كما ينفض الأسد فريسته ، وتشيلنى وتحطنى ، وترجنى وترمينى من هنا وهنا ، حتى فاءت بى إلى الرفق والهوادة فأرحت واسترحت

أى نعم ، تتسع الدنيا لى ولغيرى ، وتستغنى عنا جميعاً ! وليس أضل رأياً ممن يتوهم أن الحياة لا تطيب له إلا إذا خلا طريقه فيها من الناس . وما أحكم قول الإنجليز فى أمثالهم : « عش ، ودع غيرك يعش » ! وما على المرء إلا أن يفكر فيما عسى أن تخسر الدنيا إذا هى خلت من الناس وعادت خراباً يبابا ؟ لا شىء ! لن يكف الفلك المسيّر عن الدوران ، ولن يعوّق الشمسَ شىء عن الطلوع والأفول ، ولن تعدم الحياة على الأرض مظهراً آخر تتبدّى فيه كما تبدّت فينا نحن بنى آدم ! وهل نحن إلا صورة من صور الحياة ؟ وهل أعظم غروراً أو أقل عقلا ممن يكبر فى وهمه أن الحياة تنعدم إذا انقرض الإنسان وتقلّص ظله عن الأرض ؟

ولا يتوهم أحد أن هذا كلام زاهد أو متزهد ، فما أنا بهذا ولا ذاك ، وإنى لمن أشد الناس رغبة فى الحياة الرضية ، ونشداناً للعيش الرغيد ، وطلباً لأطايب الدنيا ، وعكوفاً على متعها الشهاة ، وكل ما فى الأمر أنى لا أرى أن فوزى بما أبغى لا يستوجب أن يُحرم الناسُ غيرى ما يطلبون ، أو أن يخيبوا ويخفقوا . وأى دنيا تكون هذه إذا كان نجاح فرد فيها وتوفيقه فى إدراك آرابه لا يتسنى إلا بخيبة الباقين ؟ ثم إنى لا أحس أن الناس ينافسوننى أو يزحمونى أو يضيقون علىّ المجال ، فإن الأرض رحيبة ، ومجالاتها لا آخر لها ، وما رأيتنى عجزت قط عن اختراع طريق بكر ، أو الاهتداء إلى ميدان جديد ، إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك

وصحيح أن الحياة جهاد — جهاد مع الطبيعة ومع الإنسان — ولكنا لسنا من الحيوان ، فنضالنا لا ينبغى أن يكون بالأنياب والمخالب ، بل بالعقول . ونضال العقول متعة ، وليس يعيى به أو يستثقله أو يضجر منه إلا من لا يصلح لغير حمل الأثقال كالدواب . وليس أمر الدنيا إلى هؤلاء المساكين المستضعفين الذين يساقون ويسخرون ، بل إلى أصحاب العقول . حتى حين تقوم الثورات لا تكون الثورة فى حقيقة الأمر من الجمهور الأكبر والسواد الأعظم الذى يسفك الدماء ويعيث بالخراب والدماء ، بل ممن يدفعونهم إلى ذلك ويغرونهم به ويحضونهم عليه صراحة وتلميحاً ، وعفواً أو عن عمد ، أى من أصحاب العقول . ولست

تستطيع أن تحصر عقول الناس أو تعقل ألسنتهم . وخير وأرشد — لك ولنا — أن لا تفعل حتى إذا استطعت . وتصور دنيا ليس فيها من يفكر بعقله وينظر بعينه غير واحد ليس إلا ! أي مزية يستفيدها هذا الفرد؟ وأي متعة أو نعيم له في حياته مع أشباه البهائم؟

إنما المتعة والنعيم في هذا النضال الذي تتصفح فيه عقول منافسيك وتضيفها إلى عقلك ، وأنت بذلك تكسب أبداً ولا تخسر ، وتغنم كل يوم ثروة ذهنية إلى ما أوتيت من ذلك ، وتمنع عقلك أن يبلد ، لأنك لا تنفك بفضل النضال الذي لا مهرب لك منه ، تجهد وتشحذه وترهفه

ولكن المرء لا يستطيع أن يناضل بعقله الفطري . وأعني بالفطري الذي لا زاد له من العلم ، ولا مدد من المعرفة . وشبيه بذلك أن تقاوم متذوفات المدافع بالحجارة . فلا معدى لنا عن تعهد ملكاتنا وتزويدها بالأداة التي تجعلها أمضى وأكثر غناء

وعلمني الحياة الابتسام ! وإنه لعجيب أن يحتاج المرء أن يتعلمه ! أنه يقول بعضهم في تعريف الإنسان إنه حيوان يبتسم ؟ وأدعى إلى العجب من ذلك أن تكون المحن والشدائد هي التي علمتنيه وعودتنيه ! إي والله ! فقد كان صدري يضيق ومرارتي تكاد تنشق ، من التيظ ، وكنت أجزع إذا حاق بي ما أكره ، وأقنط من نصرتي على اجتياز المحنة ، حتى تلفت أعصابي واسودت الدنيا في عيني ، بل كاد نور عيني يخبو وينطفئ لفرط ما كنت أعانيه من الاضطراب والألم والكمد ، ثم لطف بي الله فتمردت على نفسي ، وصرت إذا عراني ما كان يعروني من الجزع أو الخوف أو الاضطراب أقول لنفسي : قد جربت مثل هذا من قبل ، وعرفت بالتجربة أنه كله يمضي ولا يخلف أثراً ولا يورثني إلا الأسف على ما أنهكت من أعصابي في احتماله ، وقد لدغت آلاف المرات : فلا يجوز أن ألدغ بعد ذلك أبداً ، وخليق بي أن أتلقى كل ما يجيء — لا بالصبر والتشدد ، فقد كان ذلك ما أفعل وما يكن يكفي — بل بالسخرية والتهكم — سخرية العارف وتهكم المدرك للقيم الحقيقية للأشياء — وبالابتسام الذي يهون كل صعب ويحيل كل جسيم ضئيلا .

وإذا بالابتسام له فعل السحر بل أقوى . تفتح حنكك ربع قيراط ، وتكلف عينك أن تومض قليلا فتتغير الدنيا كلها ! تجف الدموع إذا كنت تبكي ، وينضب معينها ، وينشرح صدرك إذا كان منقبضاً ، وتشعر بخفة في بدنك بعد أن كان على كاهلك وقر تزوح تحته ، وزايلك ما كنت تحاذر كأنما كان ظلا ارتمى عليه نور فنسخه ، ويتجدد الأمل الذي كان قد استحال إلى يأس ، وتنشط للعمل والسعي والجهاد وأنت مفعم بالرجاء ، بعد أن كانت رجلاك كأنما شدتا إلى قنطارين من الحديد ، ولا تعود تبالي أنك في ضيق ، أو أنك عاطل ، أو مريض ، أو أنك فقدت عزيزاً ، أو أن تجارتك بارت وخسرت ألف ألف جنيه ! كل ذلك الكرب المض يصبح غير ذي قيمة لا لشيء سوى أنك استطعت أن تبتسم ! ولست أعني للقراء إلا الخير محضاً ، ولكنه ما من حياة تخلو من دواعي الانقباض أو الألم أو الحزن ، فليجربوا الابتسام إذا مر بهم — لا قدر الله — شيء من ذلك ، وليتأملوا فعل سحره ، فقد وجدته في كل حال وصفة نافعة .

وليس الابتسام سهلا في مثل هذه الحالات ، فإنه مقالبة للنفس ، ومغالبتها تتطلب جهداً عظيما ، ولكن الثمرة تستحق العناء ، والمثوبة على قدر المشقة . وأول ما يكون على المرء أن يتغلب عليه ، هو الاستحياء من أن يتبسم في موقف حزن أو كرب شديد مخافة أن يقول الناس إنه يسرف في التكلف . وما من شك في أنه لا يتأتى في أول الأمر إلا بتكلف شديد ، ولكنه لا يلبث بعد أن ينجح في تكلفه أن يصبح طبيعياً ، لأن مجرد الابتسام يفجر ينابيع البشر في النفس فتفيض

ولأن يتكلف المرء الابتسام خير — وأسهل أيضاً — من أن يحتمل ما هو فيه من الآلام ، وما يساوره من المخاوف والوساوس والأوهام

ومتى ابتسم المرء في الشدائد والمحن ، فإن الميزان يعتدل من تلقاء نفسه ، فيفطن المرء إلى القيمة الحقيقية — لا المتوهمة — لما هو فيه أو لما يخشى أن يكون . فتراه يقول لنفسه إذا كان قد فقد عزيزاً : « لقد مات ، وكان لا بد أن يموت يوماً ما ، وسنموت جميعاً متى وافانا الأجل ، فلا حيلة في هذا . وصحيح أنه مات في وقت أنا أحوج ما أكون فيه إليه وإلى عونه ، ولكن إطالة عمره لم تكن في يدي ، واستغراق الحزن لي ليس من شأنه أن يجعلني أقدر على النهوض بالعبء الذي انتقل إلى كاهلي »

وكان قبل أن يبتسم يقول : « يا ويلتاه ! وا مصيبتاه ! ما ذا أصنع الآن ! لقد فقدت المعين ، فأنا ضائع لا محالة ! وكيف تطيب الحياة لي بعده ؟ الخ الخ » . نعم ، هو سحر ، ولكنه سحر في وسعنا جميعاً أن نعالجه ونوفق فيه . وكل شيء في مبتداه عسير ، ثم يهون بالدربة والمرانة ويصبح عادة وأشبه بالطباع ، ويكسب المرء مناعة وحصانة ، فلا تعود صروف الأيام قادرة على تقويض كيانها ونقض بنيانها . فجربوا هذا كما جربته ، واشكروني

الطنطاوي